منحة العلم

تأثير الآلات في حياة المجتمع الانساني

التفاعل بين العقل الفردي والعقل الاجتماعي

لنقولا الحداد

يلقبون هذا العصر بعصر الآلات. وهو جدير بهذا اللقب . لان تأثير المخترعات الحديثة في الحياة الاجتماعية امر بزية ظاهرة فيه . فلنتخذ هذا التأثير نواة بحثنا

فلما كان عامة الناس يغطون لتأثير الآلات في حياتهم اليومية وفي التطور الاجتماعي لانهم معاصروها . وما انتقلوا انتقالاً مفاجئاً من عصر خالٍ من المخترعات الى عصر حافل بها (وهي فيه تشغل كل وسيلة من وسائل المعيشة) لكي يقابلوا بين ذاك وهذا . بل جاءوا الى الحياة والمخترعات تسبقهم اليها مولداً وتعيش معهم اسرع نمواً وتبق بعدهم آجلة

على ان التطور الاجتماعي الحالي المفاجيء والسريع نبّههم الى تأثير المخترعات فيه . فعلّل السواد الاعظم منهم الازمة الاقتصادية الحالية بانها نتيجة حلول الآلات محل الايدي العاملة. فكان هذا الحلول علة البطالة ، فعلة ضنك العامّة الذين يعتمدون في الاسترزاق على عملهم ، فعلة ضعف قوة الشراء ، فعلة بطء حركة الرواج ، الى غير ذلك من حلقات سلسلة أسباب لا تنتهي . وقد تمادى بعضهم في التعليل الى ان نمّ على العلم الحديث لانهُ هو الذي انتج هذه المخترعات

فما اسخف هذه التعليلات ! وما اضلّها ! العلم قديماً وحديثاً كان ولا يزال القوة العاملة في تقدّم التمدّن منذ قبض الانسان على يد المحراث الى ان صار يستضيء بمصباح الكهرباء ويناجي اخاه الانسان بواسطة الراديو الخ . فاذا كان انسان اليوم يتمتع بمحامد المخترعات الوف اضعاف ما تمتع بهِ جدّهُ الاول فانما يتمتع بها بفضل منحة العلم هذه . ولكن اذا كان المجتمع الانساني قد اساء استعمال هذه المنحة او انهُ لم يدرِ كيف يجب ان يتمتع بها افراده جميعاً على السواء فما هو ذنب العلم ؟ وما هو ضلال تلك المخترعات ؟ ان العلم قصد خيراً للجنس البشري. ولكن الجنس البشري برهن بسوء تصرّفهِ على انهُ لا يستحق هذا الخير

اما حدوث الازمة العالمية فله اسباب او سبب رئيسي غير تكاثر الآلات . ولهُ بحث آخر لا يسعهُ هذا المقال ولا هو من فروعهِ

يلاحظ بعض المفكرين ان عصر الآلات هذا يؤثر تأثيراً سيئاً في العقلية الفردية الى ان

يضعفها . فهو في زعمهم خطرٌ على النبوغ الفني . فمن امثلة ذلك قولهم ان الطباعة بالالوان تكاد تقضي على فن التصوير الزيتي والزخرفة ، وكذلك شأن التصوير الشمسي . وبين الفريقين بون في الجمال، وان السما يكاد يقتل فن التمثيل على بد المزاحمة مع انهُ مهما أتقن السما فلا يضارع التمثيل ، واذا كان الناس يقبلون على ذاك دون هذا فليس لشدة اعجابهم بالتمثيل السماعي بل لدهشتهم من غرابة هذا الاختراع ولارتياحهم الى المناظر التي لا تتيسر في مسرح يقاس بالامتار. وان الراديو (والفونوغراف ايضاً) كالسما يزاحم فن الموسيقى ويكاد يقضي عليه او على اندية الغناء والعزف . وان الآلة الكاتبة تقضي على فن الخط ، والآلة الحاسبة التي تجمع وتطرح وتضرب وتقسم وتربع وتكعب وتجذر الخ تقضي على قوة العقل الحسابية او تضعفها بسبب الاستغناء عنها : — بمثل هذه الامثلة يتأولون على إضعاف النبوغ والعبقرية في الفنون جميعاً، بل على ضعف العقل ايضاً بحجة ان الآلات لا تحل محل اليد والعضل فقط بل تحل محلَّ المواهب العقلية ايضاً

ولكن فات هؤلاء المتشائمين من تأثير الآلات وخطرها على النبوغ الفني والمواهب العقلية ان النبوغ نفسه والمواهب انفسها تتطوَّر وتتحوَّل من حال الى حال كتطور الحياة الانسانية والحياة العقلية والحياة الاجتماعية على العموم . فقد نبغ العقل الفني يوم لم يكن للفن من اداة الا الانامل والريشة والقلم والعاطفة والهيكل الجسماني في التمثيل ومرونة الاوتار الصوتية في الحنجرة والقوة الحاسبة في العقل الخ . ولكن لما امكن ان تقوم الآلات بكل امانة وبلا خطإ مقام هذه المواهب والاعضاء والعواطف الخ لم يعد للنبوغ القديم وظيفة في هذه المناطق وصار عليهِ ان يبتدع لنفسهِ مناطق اخرى لكي يبرز فيها . فلما صارت الآلة الحاسبة تقوم مقام العقل في الجمع والطرح الخ بلا خطإ بتاتاً وتريحهُ من عناء هذه العمليات الشاقة تفرَّغ العقل للنبوغ في عمليات اسمى من هذه كنسبية اينشتين وكوانتم Quantum بلانك والكهرب والجو الكهربائي المغنطيسي الذي تولد منهُ الراديو الخ . وقس على ذلك اموراً كثيرة تفادياً للاسترسال في ضرب الامثلة

مع ذلك لم يُستغنَ عن الفن والمواهب العقلية السابقة . بل استغنى عن تعدد النوابغ فيها . لا يزال المجتمع في حاجة الى فن التصوير ليغذي فن الطباعة المصوَّرة ، وفي حاجة الى الموسيقي البارع لكي يموّن الفونوغراف والراديو ، وفي حاجة الى كل نبوغ وموهبة عقلية لتغذية كل اختراع . ثم ان الاختراع نفسه ثمرة النبوغ . أليست هذه الآلات والمخترعات العجيبة بنت نبوغ جديد اعظم شأناً من ضروب النبوغ السابقة . اي نبوغ اعظم من النبوغ الذي انار العالم بالمصابيح الكهربائية والنبوغ الذي ينقل الينا الكلام والاصوات والمخاطبات على ابعاد سحيقة بمثل لمح البرق ، والنبوغ الذي يحملنا على متن الهواء

ان تأثير الآلات في جميع صنوف الحياة الفردية فضلاً عن الحياة الاجتماعية ليس خطراً عليها وليس فيهِ من اذى البتة . بل بالعكس فيهِ من التأثير الحسن ما لم يحلم بهِ انسان الامس. تأثيره الحسن في الحياة الفردية عظيم جداً ، وتأثيرهُ الحسن في الحياة الاجتماعية أعظم . فهو يعجل التطوُّر الاجتماعي الذي تتجه اليهِ الهيئة الاجتماعية تعجيلاً سريعاً جداً

ان التطور الاجتماعي متجه الى توحيد الامم ، أي الى صوغها جميعاً في امة واحدة وتأثير الآلات يخدم هذه الصياغة

توحيد الامم يستلزم ان تتشابه الامم في الاخلاق والآداب والعقلية ، وان تتساوى في المعرفة ، وان تتماثل في التصورات ، وان تتقارب في العادات ، وان تتوازن في الانظمة ، وبالاجمال ان تسبك جميعاً في قالب واحد لكي يستطاع تكوين عقلية اجتماعية واحدة ذات عاطفة واحدة ، ولكي يستطاع تصميم نظام واحد لها . ومخترعات هذا العصر قائمة بهذه الصياغة حتماً . والمخترعات الخاصة بالمواصلات قائمة بالجانب الاكبر من هذا العمل

خذ اشرطة السنما مثلاً . الشريط الواحد ينتشر في جميع أنحاء العمور ويرسم في مخيلات ألوف الملايين من الناس تصوُّراً واحداً لكل حادث وفن ومنظر وعاطفة ومعرفة كأنَّ جميع ناس الكرة الارضية مشرفون على مشهد واحد من مشاهد الحياة. وكل يوم يرون منها مشهداً جديداً . واذن كلهم يتأثرون نفس التأثرات وتنشأ فيهم نفس الميول والعواطف والاخلاق سواء أكانت مدمّنة مثقفة او مفسدة . وتلافي الفساد فيها يكمل الزمن . والميل الانساني الفطري الى الرقي يرشد الانسان الى وسائل الرقي الصالحة بالاختبار والتجربة

وتعميم المعاملات بواسطة المواصلات السريعة على متن الاثير والهواء والكهرباء جعل أفضل الانظمة الاجتماعية متشابهة عند جميع الامم . بل يكاد يكون للامم جميعاً نظام واحد في السياسة والادارات الاقتصادية والحكومية والادبية وسائر الانظمة الاجتماعية. وللطباعة يد طولى في تعميم العلم والمعرفة والآداب والفنون والصناعات عند جميع الامم . وانتشار سلع المصانع والمعامل على طراز واحد في جميع الممالك جعل افراد الامم متشابهين في الازياء والعادات كل التشابه

لا متسع لزيادة التفصيل. فكتفي بما تقدم من الامثلة لبيان تأثير عصر الآلات في المجتمع الانساني بحيث يُعدهُ لصياغة واحدة في قالب واحد تمهيداً وتسهيلاً لتوحُّد امهِ متى بدت فضيلة هذا التوحُّد . وفضيلته تنشىء الرغبة فيهِ . فمسألة تأخي الامم واتفاقها في سلك الوحدة مسألة وقت فقط . لا اظن هذا الوقت بعيداً . والفضل في هذه النتيجة الحميدة يعود الى عصر الآلات . والفضل في مزيَّة (لا ميزة) هذا العصر الجليلة يرجع الى العلم . والعلم ينتشر في جميع الامم وجميع طبقاتها بفضل تعمهِ . لانهُ وهو الذي ابدع الآلات وسهَّل

اسباب المعايش وقرّب وسائل التعلّم لمنال كل فرد وابان فضائله كالنور الساطع ، جعل نفسه منحة مجانية لجميع الناس . قابل هذا العصر بالاعصر التي سبقتهُ وانظر كم كانت الامم متباينة في معارفها واخلاقها وميولها وعاداتها وتقاليدها وازيائها الخ . لانها كانت محرومة وسائل المواصلات السريعة . فكأنه كان بينها حدود تفصلها بعضها عن بعض فكانت تتبادى في تباينها ولا سيما تباين لغاتها . اما الآن فالامر بالعكس . تتمادى في التشابه والتشبُّه

وإذكان الناس يسيئون استعمال هذه المنحة واساءتها تجرُّ عليهم بعض الاحيان وبالاً فلأن ادب النفس Ethics لا يزال ضعيفاً في العقل الانساني والعقل الاجتماعي . وما عيب المجتمع في هذا العصر الراقي رقيًّا الاّ هذا الضعف . فقد ارتقى المجتمع والانسان كثيراً اذا قيسا الى سلفيهما القديمين — ارتقيا ماديًّا وعقليًّا جدًّا . ولكنهما لا يزالان قاصرين ادبًا نفسيًّا. وهذا هو سرُّ ان الانسان لم يقدر قيمة منح العلم حق قدرها ولا يزال لا يستحقها . ولكن العلم حليم جدًّا . لا يعتب على الانسان وعلى مجتمعهِ لكنودها ولسوء استعمالها منحةُ الكريمة بل هو يستمرُّ في عملهِ لتدميث الاخلاق وتهذيب النفوس وتقويم الاخلاق وتنبيه الضمائر . والتجارب والاختبارات كفيلة برد الانسان الى رشدهِ لكي يرقي نفسه ادبيًّا

رأيت فيما تقدم ان الآلات وسائر صنوف الاختراعات تلعب ادواراً عظيمة الشأن على مسرح التطور الاجتماعي . حتى انها تغير مجراه في بعض الاحوال ، وتبدي المجتمع في كل حين في شكل جديد وفي ثوب قشيب . بل لا يندر ان تهدم بعض جدرانهِ وتجدّد بنيانه . فقيما هي من صنعة النبوغ الفردي والمواهب العقلية الممتازة نراها تردّ هذا الفعل للمجتمع بأن تصنع مواده وادواته وتجدد هيكله وطرازه . والمجتمع في نوبتهِ يصنع عقلية جديدة للفرد ويجدد شكل ذهنيتهِ ويغير وجهة ميولهِ . فكأنَّ التفاعل الذي بين الفرد والمجتمع ، او بين العقل الفردي والعقل الاجتماعي لا يتم مباشرة بينهما بل بواسطة الآلات والادوات المادية . العقل يبتدع الآلات . والآلات تجدد تطور المجتمع . والمجتمع المتجدد نفسه يستخدم الآلات نفسها لتطوير عقلية الافراد . هكذا يحدث التفاعل بين العقلية الفردية والعقل الاجتماعي على نحو تفاعل العقول والنفوس الفردية بواسطة وسائل الاتصال المادية كأمواج النور التي تنقل صور الحوادث والاشارات الى الناظرين ، وكأمواج الراديو التي تتولى هذا النقل على مسافات بعيدة ، وكأمواج الصوت الهوائية التي تنقل الاصوات والكلام الى الآذان . والناس يتناولون افكارهم ويتلقون اختباراتهم عن طريق أبصارهم واسماعهم . حتى ان توارد الافكار Telepathy ان صحَّ انه ظاهرة عقلية حقيقية لابد ان يكون بواسطة امواج اثيرية ان صح وجود الاثير او بواسطة امواج كهربائية مغنطيسية تقوم مقام الاثير